المحاضرة الأولى: علم النفس المدرسي، مقاربة مفاهيمية تاريخية

- مقدمة

- مفهوم علم النفس المدرسي
- التأصيل النظري لعلم النفس المدرسي
- المحطات الكبرى في علم النفس المدرسي
- مواضيع علم النفس المدرسي

مقدمة

لم يعد علم النفس المدرسي مجرد مادة علمية نظرية متخصصة، بل أصبح ممارسة يومية يقوم بها أخصائيون نفسيون على قدر من التمرس والاحترافية، يقدمون من خلالها خدمات نفسية على مستوى المؤسسات التعليمية، ولم يصل علم النفس المدرس ي إلى ما وصل إليه إلا نتيجة تراكمات معرفية امتدت على مدار قرون من التنظير، وسنحاول من خلال هذه الورقة أن نتطرق إلى مفهوم علم النفس المدرس ي، ونشأته تطوره وأهم مؤسسيه ومنظريه، كما سنسلط الضوء على أهم موضوعاته، وإسهاماته في تحقيق الصحة النفسية للمتمدرسين.

مفهوم علم النفس

قبل الخوض في تحديد مفهوم علم النفس المدرسي، لا بد من الإحاطة بمفهوم علم النفس العام على اعتبار أن علم النفس المدرس ي يستمد مقوماته الأساسية من مفهوم علم النفس العام، هذا الأخير مر بعدة مراحل كان آخرها اعتباره " الدراسة العلمية للسلوك والظواهر النفسية، بقصد الوصول إلى القوانين التي تمكننا من فهم السلوك، ومعرفة أسبابه والتنبؤ بحدوثه وضبطه والتحكم به، فأصبح علم النفس علم دراسة السلوك بصفة عامة والسلوك الإنساني بصفة خاصة، بهدف الوصول إلى القوانين التي تفسر هذا السلوك. **(البكري وعجوز، 2001، ص 22)**

مفهوم علم النفس المدرسي

فعلم النفس إذن هو علم دراسة السلوك وما وراءه من دوافع، والسلوك هو نشاط يقوم به الكائن الحي في النواحي المعرفية والوجدانية والحركية، أي أنه كل ما يقوم به الكائن الحي من أفعال سواء كانت هذه الأفعال ظاهرة أو غير ظاهرة، ويقصد بعلم النفس المدرسي أنه ذلك الفرع الخاص من فروع علم النفس أكثر من كونه مجرد تطبيقات لمبادئ علم النفس العام في مجال التربية والتعليم، فعلم النفس المدرسي هو أحد المجالات النفسية المستقلة. **(سليمان، 2010 ، ص ص 26 - 27)**

ومن بين التعاريف التي وردت في التراث النظري لتحديد مفهوم علم النفس المدرس ي يمكن أن نشير إلى التعاريف التالية:

- حسب فؤاد أبو حطب 1980 يعد علم النفس المدرس ي فرعا من فروع علم النفس العام، ويسمى علم النفس التعليمي، حيث أن موضوع علم النفس التربوي الأساس ي هو التعلم المدرسي **(البكري وعجوز، 2001 ، ص 24)**
- علم النفس المدرس ي هو دراسة المشكلات المتعلقة بسلوك التعلم والتعليم، والمشكلات النمائية التي تظهر في المدرسة كتأخر القراءة والكتابة وبطء التعلم والمشكلات الانفعالية المصاحبة لذلك، وغالبا مايكون لدى المشتغل في هذا الميدان خلفية في علم النفس الإكلينيكي وعلم النفس التطوري معا. **(سليمان، 2011 ،ص 27)**
- يُعرف على أنه فرع من فروع علم النفس، يهدف إلى تقديم خدمات نفسية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة للأطفال والمراهقين من أجل تنمية صحتهم النفسية ونموهم وتطورهم التربوي من طرف المختص النفسي المدرسي.**(حسيني، 2008 ، ص 55)**

إن القراءة المتأنية لهذه التعاريف تمكن من تسجيل جملة من الملاحظات أهمها:

- الارتباك المفاهيمي الحاصل في التراث النظري خاصة المترجم إلى اللغة العربية حول تحديد مفهوم واضح لعلم النفس المدرسي، ويظهر ذلك جليا في التعريف الأول الذي تضمن خلطا واضحا بين مفاهيم ثلاثة يعبر كل منها على فرع من فروع علم النفس، ولتفادي نتائج هذا الارتباك المفاهيمي اتجه العلماء في الوقت الحاضر حسب البكري وعجوز(2001 ، ص 24) لتسمية هذا العلم بعلم النفس المدرسي، حيث يبرر نشواتي 1985 ذلك أن الجوانب النظرية العامة للتعلم تقع في علم النفس، بينما يقع التعلم المد رسي في ميدان علم النفس التربوي لأنه يحدث في سياق اجتماعي معين.
- اقتصار علم النفس المدرس ي على دراسة السلوك التعلمي التعليمي في البيئة المدرسية، والذي يصدر من المتعلم في المواقف التعليمية، كما يهتم بدراسة المشكلات التي تعيق سيرورة العملية التعليمية.
- ارتباط علم النفس المدرسي ببعض فروع علم النفس الأخرى، على غرار علم النفس العيادي وعلم النفس النمائي، لما يوفرانه من خلفية معرفية تسهم في دراسة مواضيع الاهتمام في علم النفس المدرسي.
- مضمون علم النفس المدرسي هو جملة الخدمات التي يتم تقديمها للمتعلم، لتحقيق التكيف مع متطلبات البيئة المدرسية والبيئة الصفية على حد سواء، وبالتالي تحقيق أقص ى حد من التوافق النفسي.

تعريف علم النفس المدرسي

انطلاقا من كل ما سبق يمكن تعريف علم النفس المدرس ي بأنه فرع من فروع علم النفس، على غرار علم النفس التربوي وعلم النفس النمو وعلم النفس العيادي وعلم النفس الاجتماعي، يهتم بدراسة سلوك المتعلم في المواقف التعليمية، في سياق البيئة المدرسية والبيئة الصفية، من خلال التركيز على تفاعل المتعلم مع المواقف التعليمية بكل مكوناتها، والتكيف مع متطلبات البيئة المدرسية والصفية على حد سواء، ويركز على الفعاليات النمائية المتعددة الأبعاد والمظاهر، وذلك بهدف تقديم خدمات نفسية للأطفال والمراهقين المتمدرسين، من طرف أخصائيين مؤهلين، يستهدف تدخلهم تحقيق النمو السليم المتكامل للشخصية بكل أبعادها، وبالتالي تحقيق التوافق النفس ي والصحة النفسية في البيئة المدرسية.

التأصيل النظري لعلم النفس المدرسي

رغم أن الحقول المعرفية المعاصرة، ومن بينها علم النفس باختلاف فروعه، ومنها علم النفس المدرسي ما كانت لتكون لولا جهود العلماء والفلاسفة والمفكرين من مختلف الحضارات، وليست الحضارة الإغريقية فقط، إلا أن العديد من المهتمين عن قصد أو عن غير قصد، يتجهون إلى إقصاء دور بعض الحضارات في البناء التراكمي للمعرفة على مر العصور لاعتبارات سياسية وإيديولوجية، تتعلق أساسا بتكريس منطق الحضارة الغربية السائدة في هذه الحقبة من الزمن، وهذا يخالف المنطق العلمي المبني على أسس وقواعد التراكم المعرفي، فالمعرفة العلمية في شكلها الحالي ما كانت لتكون لولا جهود علماء وفلاسفة من كل الحضارات وعلى مر العصور، ذلك أن الميزة الأساسية التي تميز المعرفة العلمية أنها عابرة للقارات والحضارات والعصور، وعند الحديث عن علم النفس باعتباره الإطار العام لكل الفروع، فإن ارتباطه بالفلسفة لا يختلف عليه الباحثون شأنه في ذلك شأن باقي العلوم، والموروث الفلسفي الإنساني كان نتيجة تراكمات امتدت من الحضارات الغابرة حتى وصلت إلى الحضارة الإغريقية، وهذا ما أكدته العديد من الدراسات التاريخية والآنتروبولوجية.

المحطات الكبرى في تطور علم النفس المدرسي

علم النفس عموما وعلم النفس المدرسي على وجه الخصوص، ظهر من خلال جهود العديد من علماء النفس وحتى بعض المشتغلين بالفلسفة، وما كان التطور الحاصل في هذا التخصص في عصرنا الحالي ليكون لولا تراكمات معرفية ترتبط أساسا بأقطاب العملية التعليمية الثلاث؛ المعلم، المتعلم، المعرفة العلمية، فعلى امتداد الحضارات الغابرة، وُجدت محاولات جادة من طرف الفلاسفة والمفكرين، لتحديد الروابط الممكنة بين هذه العناصر الثلاث المشكلة لما بات يعرف بالمثلث الديداكتيكي، فمن كونفوشيوس إلى أفلاطون، ومن الغزالي وابن سينا وابن سحنون وابن خلدون إلى باشلار وأوجيست كونت ووليام جيمس وجون ديوي، وصولا إلى جالتون وفريديريك هيربرت ثم إلى لايتنر ويتمر، كانت كلها محطات تاريخية، شهدت تراكمات متتالية لمحتويات معرفية، تناولت ما يجب أن تكون عليه العلاقة التعليمية باعتبارها أهم المحددات في الفعل التعليمي.

لقد تشكلت على مدار العصور السابقة علاقات بين هؤلاء العلماء والفلاسفة، من خلال الاطلاع على أعمال السابقين، والتقت اهتماماتهم حول موضوع العلاقة الديداكتيكية، حتى وإن تباينت أفكارهم حول محورية أقطاب هذه العلاقة، وكانت محصلة هذا التلاقي تراث معرفي أسس لعلم النفس عموما وعلم النفس المدرسي على وجه الخصوص، وهذا الطرح يتوافق إلى حد كبير مع ما توجهات علم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge الذي يعتبر أن فروع المعرفة والتخصصات العلمية تولد عندما تلتقي مجموعة من العلماء من ذوي الاهتمامات المتماثلة أو المتقاربة، ويشكل هؤلاء ما يعرف بالمجتمع العلمي أو الجماعة العلمية Scholarly Community، وتعرف على أنها جماعة افتراضية غير مرئية، وقد لا يعرف أعضاؤها بعضهم بعضا معرفة شخصية، وإنما من خلال الاطلاع على بحوثهم والإشارة إليها ونقدها، ويتولد عن النشاط البحثي لأعضاء الجماعة محتوى معرفي كاف لتشكيل فرع من فروع المعرفة أو تخصص معين.

(جبران وعطاري، بدون سنة، ص 5)

وعليه فإن هذه المقاربة النظرية، يمكن أن تفسر لنا ظهور علم النفس المدرس ي كتخصص فرض نفسه سواء على مستوى البحث الأكاديمي أو على مستوى الممارسة الإجرائية، منذ المحاولات الأولى لتأصيله على يد عديد العلماء وفي مقدمتهم Lightner Witmer، هذا الأخير الذي استطاع أن يجسد المبادئ والنظريات في ممارسات عملية، استهدف من خلالها التكفل ببعض الفئات من المتمدرسين الذين يعانون من سوء في التكيف الدراس ي، ولعل ارتباط علم النفس المدرسي بالمتمدرسين وبالبيئة المدرسية، كان من بين العوامل التي ساهمت بشكل كبير في ظهور هذا الفرع الفتي بنفس الزخم الذي ظهرت به فروع أخرى، ذلك أن المدرسة في الأنظمة التربوية الحديثة، أصبحت تعد من أهم المؤسسات في المجتمع، خاصة في ظل التغيرات الاجتماعية السائدة، والتي جعلت من المدرسة أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية.